

## شعره

[١]

أنشد بعضهم فى مجلس هذا البيت لعدى بن الرقاع :

وكان ليلى حين تغرب شمسه      بسواد آخر غيره، موصول

فأنشد غيره هذه الأبيات لبشار:

خليلى ما بال الدجى لا تزحزح      وما لعمود الصبح لا يتوضح

أضل النهار المستنير طريقه      أم الدهر ليل كله ليس يبرح

لطال على الليل حتى كأنه      بليلين موصول، فما يتزحزح

كأن الدجى زادت، وما زادت الدجى      ولكن أطال الليل هم مبرح

لقد هاج دمعى نازح بنزوحه      ونومى - إذا ما نوم الناس - أنزح

فقال أحد الحاضرين للأول "نح بيتك، لا تأكله هذه الأبيات! فإن بيتك

طفل، وهذه الأبيات سباع".

ولو سمع بشار هذا الوصف لاستخفه الطرب، فقد كان مولعا بأن يقال

عنه إنه فحل.

وما بعجيب أن يجيد القول فى طول الليل، فما كان يصف فى الحقيقة

إلا الليل قسم له أن يكون عليه سر مدا. ومثله قول ابن التعاويندى بعد أن

كف:

يا لك من ليك حجاب      جنحه معتكبر  
 ظلامه لا ينجلى      وصبحه لا يسفر  
 ليس له إلى الممات      آخر ينتظر  
 ما في حياة معه      لذى حصاة وطر  
 غادرني كأنني      في كسر بيتي حجر  
 لا أهتدي لحاجتي      وفي الليالي عبر

ولغة بشار متينة، وعبارته جيدة رصينة، ولاسيما إذا مدح أو هجا أو قال في غرض جدى، وكان فخورا بذلك مدلا به، مزهوا بأنه نشأ في حجور الفصحاء من الشيوخ، وكان معترفا له بالصحة وسعة العلم بكلام العرب وبالفطنة وجودة القريحة والنقد.

سمع أبو زيد بيته في هجاء صديقه ديسم العنزى:

أديسم يا بن الذئب من نجل زارع      أتروى هجائى سادرا غير مقصر؟

فقال "قاتله الله! ما أعلمه بكلام العرب! الديسم ولد الذئب من الكلبة ويقال للكلاب أولاد زارع".

وقال أبو عبيدة "سمعت بشارا يقول: وقد أنشد فى شعر للأعشى:

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت      من الحوادث ألا الشيب والصلعا

"هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى" قال أبو عبيدة. "فعجبت لذلك. فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت جالسا عند يونس فحدثنى أن أبا عمر بن العلاء قال إنه صنع هذا البيت وأدخله فى شعر الأعشى. فجعلت حينئذ أزداد عجبا من فطنة بشار وجودة نقده للشعر".

وكان الأصعمى يقول "بشار خاتمة الشعراء. والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم" وهي كلمة سخيفة، ولكنها شهادة على كل حال. ولم يكن بشار ينتظر أمثال هذه الشهادة، فقد حكم لنفسه بالاستظهار وكان يقول عن نفسه "لى اثنا عشر ألف بيت عين" ف قيل له "هذا ما لم يكن يدعيه أحد قط سواك" قال "لى اثنا عشر ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن فى كل واحدة منها بيت عين".

وقال عنه الجاحظ "كان بشار شاعرا خطيبا صاحب منشور ومزدوج، وسجع ورسائل. وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المقتنين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه".

وكان الأصعمى يقول لمن يفضلون مروان بن أبى حفصة "كيف يكون ذلك وما كان مروان فى حياة بشار يقول شعرا حتى يصلحه له بشار ويقومه؟ وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يزاحمه بين أيدى الخلفاء بالشعر، ويساويه فى الجوائز، وسلم معترف بأنه تبع لبشار".

ولكن إسحاق الموصلى كان يطعن على شعر بشار ويضع منه ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا، وكان فوق ذلك يسرقه ويغزو بعض شعره الجيد للمتملمس. وهو من التحامل، ولعله كان يستثقله فهو لهذا يذمه. على أن قوله فى اختلاف شعر بشار وتفاوته صحيح لا يدفع.

ويلغ من توفيق بشار فى حياته أن قال بعضهم "عهدى بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة إلا يروى من شعر بشار، ولا نائحة ولا مغنية ألا تتكسب به، ولا ذو شرف ألا وهو يهابه ويخاف معرفة لسانه".

غير أن خطبه كلها ذهبت مع الريح، ولم يبق من منشوره ومزدوجه

وسجعه ورسائله، لا كثير ولا قليل، وطوى ديوانه، فلا يوجد منه سوى  
فارسية لغته عربية، ومسلما لم يستول الإسلام على نفسه، ولم يمنع ما  
للديانة الموروثة من التأثير، وكان نائرا متمردا بطبيعته ويحكم جنسيته على  
الرغم من تحرزه وجبنه، وكان يشتم الخلفاء والوزراء والكبراء والعلماء  
والأصدقاء والأعداء في الدولتين جميعا، ويحرض الموالي مثله على الانتفاء  
ويحضهم على الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء. وما كان يناقض ويصانع إلا  
رغبة ورهبة رغبة في الحظوة والغنى والمتعة في الحياة، واتفاء لبطش القادرين  
على البطش. وكان يظهر الازدعان لدولة العرب، ولكنه يتمثل انتصار العنصر  
الفارسي على العنصر العربي في السياسة والاجتماع والأدب. وقد أسرف في  
الهجاء المقذع، أو قل السب الصريح. فما كان هذا هجاء وإنما كان قذفا.  
وكان أول ما قال من الشعر في حياته هجاء. وأكبر الظن أن آخر ما جرى به  
لسانه كان هجاء أيضا فقد قتل فيه. وأسرف في المجون والخلاعة على الرغم  
مما كان يتوخاه من الحيطة والتحرر. وأكثر من شعر الغزل الذي استهتر به  
الشبان والنساء. فشمت به الناس جميعا لما مات. فمن ذا الذي يصون شعره  
ونثره من الضياع؟ والهجاء والغزل في شعر من سبقه من الشعراء كثير.  
والاقتداء غير قليل. ولسنا نعدم شعرا قديما فيه اسفاف، ولكن بشارا جاوز  
الحدود السابقة وخرج إلى ما لم يخرج إليه السلف. ولست تجد شاعرا واحدا  
تقدمه وفي كلامه مثل هذه "الجملة" من الهجاء الشخصي القبيح، والقذف  
الصريح والغزل المسف. وكان الشعراء قبله إذا هجوا يتعلقون على الأكثر،  
وفي الأغلب، بالمعاني "الاجتماعية" فيعييون المهجوب بما يعد نقصا في هذا  
الباب، كالبخل والجبن وقلة المروءة وسقوط الهمة والذلة وهوان القدر وما إلى  
ذلك مما يجرى هذا المجرى. وكان الظم الشخصي أو الطعن في العرض قليلا

إذا قيس إلى ما قال بشار بمفرده. أما بشار فقد أفحش في وقوعه في الأعراض كما بالغ في تناول المحسوس في تشبيهه فهو يعد مسئولا إلى حد كبير عن شيوع ذلك بعده.

والواقع أنه يلاحظ أن الشعراء من العرب اتقوا هذا على العموم، إلا قليلا، يستوى في ذلك السابقون واللاحقون من المطبوعين لا المقلدين فإن هؤلاء آفة. أما الشعراء الذين هم من أصل أجنبي فهؤلاء ركبوا متن الشطط وأساءوا إلى الخلف الكريم والأدب، بقدر ما أجادوا في الشعر وبرعوا فيه. فبشار، وبعده أبو نواس، وأمه فارسية من هوازن، وبعدهما ابن الرومي، لا تجد مثل إفحاشهم في شعر أبي تمام والبحتري والشريف الرضي والمتنبي وأبي العلاء المعري. ولكل قاعدة شذوذ أو استثناء. فمهيأ كان عفا وعسى أن تكون عفته مكتسبة، فقد كان تلميذ الشريف، وكان حديث عهد بالإسلام، ولكن هذا لا يمنع أن غير العرب هم الذين أفسحوا في الأدب واتساع دولتهم واختلاطهم بغيرهم من الأمم. وما من ريب في أن ما حدث من الأمم المغلوبة قد ساعد على جعل المجون والفحش والعبث مقبولا أو هيأ النفوس لقبوله، ولاسيما فيما جاور فارس التي انتقلت منها هذه الإباحية في الرأي إلى العراق ومن ثم إلى الأقطار الأخرى.

ونعود إلى بشار فنقول أن القليل الباقي - أو المعروف إلى الآن - من شعره، يشهد له بأنه حقيق بما تبوأ من مقام في عالم الأدب بين أعلام البيان، وإن كان لا يكفي للقول بأنه زعيم الشعراء المحدثين، فإن هذه دعوى عريضة لا تقبل بغير دليل، ولا دليل عليها، وأكثر شعره مطوى.

أكثر شعر بشار - أو ما بقى لنا منه - غزل وهجاء . وقد مر بك القول فى غزله ، أما هجاؤه فإنه على كثرته ، لا يعدو أن يكون شتما لا قيمة له ولا مزية . وهو باب من القول لا يرتقى فيه إلا الذى هياته له فطرته وأعانتة عليه سليقته ، ولم يكن بشار ، على تبرمه بالناس وضجره منهم ، بالرجل القوى العاطفة أو العميقها ، ولم يكن له أكثر من ملكة التشبيه ، تشبيه الأشياء المحسوسة بعضها ببعض ، وكان ضخم الجسم وافر الحيوية ، منغمساً فى اللهو والملذات ، لا يفتر عنها ، ولا يزهد فيها ، ولا يعيا بها حتى بعد أن شيخ وهرم . وقد أسلفنا أننا لم نقرأ فى خبر ما ، أنه مرض فى حياته مرضاً ذا بال ، ونقرأ شعره فلولا من قيل فيهم - مدخاً أو هجاء - لما عرفت أهو من شعر الصبا أم من شعر الكهولة ، فإن النفس واحد ، والروح لا يتفاوت أو يختلف فيما عدا ما كان يتلهى به من الهزل والعبث . ولقد ضرب بالسياط حتى مات ، وكان قد جاوز السبعين - أو التسعين على قول ليلهو بالأذان فى غير أوقاته . ولم يزل أحب متاع الدنيا إليه - كما قال - " طعام مز ، وشراب مر ، وبت عشرين بكر " فهو مشغول أبدا بمطالب الجسد وشهوات البدن ، وبعيد جدا أن يكون ذو الطبيعة الحيوانية ممن تستغرقهم العاطفة أو تستولى عليهم فكرة ، ولهذا لم يرتق فى شعره قط إلى عليه مراتب الفن ، حتى حكمته لم تكن إلا ثمرة التجربة للحياة ومواقعتها انظر قوله فى المشورة :

إذا بلغ رأى المشورة فاستعن      برأى نصيح أو نصيحة حازم  
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة      فإن الخوافى قوة للقوادم

وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم

فإنها حكمة واقعية، ومذهب رجل ينشد السلامة والاطمئنان والعيش الرغيد في أمن ودعة. وقد قال له الأصعمي "يا أبا معاذ، إن الناس يعجبون من أبياتك في المشورة". فقال له "يا أبا سعيد، إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في مكروهة" فقال الأصعمي "أنت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك".

وليس الأمر كما ذكر الأصعمي، وإنما نصح بشار بما هو أكفل بالسلامة وأجلب للخير والأمن.

وقوله:

تأتى المقيم - وما سعى - حاجاته عدد الحصى. ويخيب سعى الطالب

فما عدا أن قال إن كل شيء قسمة وحظوظ وأرزاق.

وقوله:

احلب لبونك إبساسا وتمرية لا يقطع الدر إلا شر حنبل

والإبساس صوت يخرج الحالب عند حلب الناقة ليسكنها به. يريد خذ الأمور برفق، وهي حكمة عملية، لم يكن هو يتحراها لسوء حظه.

وقوله:

عتاب الفتى في كل يوم بلية وتقويم أضغان النساء عناء

وتلك ولاشك ثمرة تجربته الخاصة وما عاناه من النساء اللواتي كان

يتهالك في طلب الاستمتاع بهن.

وقوله:

ترجو غدا، وغد كحاملة في الحى لا يدرون ما تلد

ومعناه لا علم لأحد بالغيّب، فاسكن إلى ما أنت فيه. والقول بأن المرء لا يستطيع أن يعلم ما يكون في غد مما أجمع عليه الأول والآخر.

ومعظم معانيه وسط، أو لا جديد فيه كقوله:

خليلى يفنى الموت كل قبيلة وما أنا إلا فى سبيل القبائل

فروحا على مالى، كلا من فضوله فما تجمع الأموال إلا لأكل

إذا أنا لم أنفع بجاهى، ولم أجد بمالى، طالتنى يد المتطاول

وقوله:

ولا بد من شكوى إلى ذى حفيظة إذا جعلت أسرار نفسى تطلع

وقوله:

أنا أن زلت عن مقامى لأمر رابنى تحت أخمصى ما يضر

كمزبل رجليه عن بلل القطر وما حوله من الأرض بحر

برقت لى، حتى إذا قلت جادت أقلعت عن جهامة تستمر

تركتنى، وما أوئل منها كالمرجى سحابة لا تدر

أيها البارق الذى ليس يجدى قد عرفناك فالتمس من تغر

وقوله:

خليلى أن العسر سوف يفيق وإن يسارا فى غد الخلق

ذرائى أشب همى براح فانى  
وما أنا إلا كالزمان إذا صحا  
وقوله:

الحر يلحى، والعصا للعبد  
وقوله:

عى الشريف يشين منصبه  
والصدق أفضل ما حضرت به  
خذ من صديقك غير متعبه  
يرد الحريص على متالفه  
وقوله:

إن الطيب بطبسه ودوائه  
ما للطيب يموت بالداء الذى  
إلا لأن الخلق يحكم فيهم  
وقوله:

إذا المرء لم يفضل، وقام بكله  
وإن كان ذا فضل، وقام بكله  
وإن كان لا فضل، ولم يغن كله  
وقوله:

أرى الدهر فيه فرجة ومضيق  
صحوت، وإن ماق الزمان أموق

وليس للملحف مثل الرد

وترى الوضيع يزينه أدبه  
ولربما ضر الفتى كذبه  
أن الحدود الجواد يؤوده تعبته  
والليث يبعث حتفه كلبه

لا يستطيع دفاع مقدور أتى  
قد كان يبرى مثله فيما مضى  
من لا يرد ولا يجاوز ما قضى

فليس به بأس، وليس بكامل  
فسام به أهل العلا والفضائل  
فناد به فى الناس هل من منازل

ليس كل النعيم يبقى سرورا      رب هم يدب تحت السرور  
وقوله:

وإذا أقل لى البخيل عذرتة      إن القليل من البخيل كثير  
وقوله:

دعيني أصب من متعة قبل رقدة      تكاد لها نفس الشفيق تزول  
وإني لآتى الأمر أعرف غبته      مرارا، وحلمى فى الرجال أصيل  
ولما رأيت الدار وحشا بها المها      تزود، وخيطان النعام تجول  
ذكرت بها عيشا وقلت لصاحبي      كأن لم يكن ما كان، حين يزول  
بدا لى أن الدهر يقدح فى الصفا      وإن بقائى، حين شبت، قليل  
أقول لقلبي وهو يرنو إلى الصبا      علام التصابى والحوادث غول  
لعلك ترجو أن تعيش مخلدا      أى ذاك شبان لنا وكهول

فلم تكن مزية بشار سمو المعنى، وقوة الخيال، أو صدق العاطفة، أو إخلاص السريرة، أو نفاذ البصيرة، وإنما كانت قدرته على الأداء الجيد الموافق للمعنى الذى يعالجه والغرض الذى يقول فيه، وقد مر بك من شعره ما فيه الكفاية.

وإذا كان لم يجرى فى الهجا بشيء من البراعات، فلا عجب، فما كان الهجاء عنده إلا زجرا وتخويفاً وإنذاراً، يصد به من يهمون به أو يتحفزون للوثوب عليه، وينهر من يخوضون فيه، ويهدد السراة الذين يرجى نوالهم ليجودوا عليه ويعطوه مما أعظاهم الله. وأكثرهم فحش لا نرى أن نورد منه

شيئا، لإسرافه فى البذاءة التى تشبه بذاءة العامة والسوقة والسفلة، ولأنه ليس فيه معنى نفيس، أو صورة بارعة، ولم يكن باعته على الهجاء أنه يطوى. أضالعه على حقد كامن يتلهب فى صدره، أو أنه كان يرى من سيرة المهجوين ما يستحق الزراية والتشهير، أو ما يدعو إلى التقويم، وإنما كان رجلا أحب أن يكون له مال وشأن ومقام، ولم يكن له من الأدوات غير الشعر وما إليه من ضروب الكلام، فقال أمدح فإذا أعطيت الجزيل مضيت فى أفراغ المدائح على من يهب ما فيه لى مرضاة، وإذا أقلوا، هددتهم وتوعدتهم وخوفتهم، حتى تبلى منهم سحابة الحدود كما قال خالد بن برمك. وإذا ردوه خائبا لم يبق إلا الشتم والولوغ فى أعراضهم بأقبح لفظ وأشنع عبارة، فإذا لم يجد معهم ذاك كان خليقا أن يروغ غيرهم ويذعرهم. وأما غيرهم من الفقهاء والعلماء والناس جميعا، فالهجاء يفزعهم، فيتملقه منهم الضعيف ويتقيه المسالم وقد استقر عزمه على هذا النهج وهو صبى، ولم يزل على هذه الخطة إلى آخر حياته، وكانت هى التى أوردته موارد التلف، وشجعه على ذلك روح العص فقد نشأ وجريير والفرزدق يتهاجيان والناس تلغظ بما يقولان. وكان علو اللسان وقوة البيان من أسباب الظهور والشهرة. ومن قول بشار: "هجوت جريرا فأعرض عنى واستصغرنى ولو أجابنى لكنت أشعر الناس". وكان الهجاء فى ذلك العصر بابا واسعا إلى الغنى. وكانت به هو حاجة إلى تخويف الناس اتقاء لشرهم، أو عيبتهم، لأنه أعمى دميم الخلق، منظره وحاله يغريان بركوبه بالعبث، ثم لأنه كان مستخفا مستهترا ومتحيرا كما قالوا عنه، فهو يخشى إذا لغط الناس بخلاعه ورقة دينه أن يصيبه من ذلك مكروه. ثم إنه هو لم يكن يعرف للعرض كرامة أو حرمة، فكان يجترئ عليهم بأفحش الهجو، ويضحك كأنما كان ذاك أمرا مألوقا عيب فيه ولا موجب للغضب

منه، بل أحربه أن يدخل على نفس المشتوم مثل ما دخل على نفسه هو من السرور والتسلية، ولم تكن سلاطته مظهر قوة، بل آية ضعف وعجز. فقد كان يخاف فيخوف، ويعتقد أن الناس مثله يخافون أن تطير لهم سمعة سيئة، فهو يهجوهم ليلذهم. ومن مظاهرهم خوفه مهاجاته لحماذ عجرد. فقد كانت وقعتته معه سوداء، ولم يكن حماذ دونه خرعة ومجوثاً واستخفافاً بالأداب والفضائل والحرمات والدين، وكان بشار يجزع من أهاجى حماذ وما يرميه به فيها. ولا يزال فيما يجيبه به يتهمه بالزندقة والإلحاد ليدفع عن نفسه الشبهة خوفاً من عواقبها، وليلصقها ببقى حماذ سليماً معافى، وقتل بشار.

هذا، وأما ما نسب إلى بشار من المجون الكثير فأنا أميل إلى الشك فيه. فقد كان الرجل بغيضا إلى الناس كلهم. فليس مما يستغرب أن يدرس عليه ما لم يقل. وكان بشار على خلاسته واستهتاكه لا يخلو من تحرز واحتياط. فليس يبدو لى مما يقبل أن يجترئ هذا الاجترأ على ما يعزى إليه من الإفحاش فى المجون. وإذا قيل إن نفس الشاعر هو المقياس، فما شابه كلامه كان حريا أن يكون له، قلنا إن هذا مقياس غير دقيق، لأن القائل فى المجون لا يتحرى ما يتحراه عادة فيما ينظم فى الأغراض الجدية من إشراق الديقية ورصانة العبارة ومتانة الحبك والسبك وجزالة اللفظ وإحكام الأداء على العموم.

\*\*\*

وقد أخذ بشار من غيره، وأخذ منه غيره، فأحسن الأخذ وأحسنوا. ولعل الأثبه بالصواب أن نقول إن معانيه - ومعظمها وسط - كثيرة في كلام من سبقوه ومن جاءوا بعده، وهي ليست من البراعة أو العمق بحيث لا يعقل أن تخطر على البال. وإذا ذكرت أن كل شاعر كل يحفظ كلام من سبقوه ويحرص على الإحاطة به فإنك خليك أن لا تستغرب هذا التشابه الكثير بين معاني المتقدمين والمتأخرين.

وإلى القارئ طائفة من الأمثلة:

قال بشار:

كأن مثار النفع فوق رؤوسنا      واسيا فناليل تهاوى كواكبها

وهو من براعاته المشهورة، وقد جراه مسلم فقال:

في جحفل تشرق الأرض الفضاء به      كالليل، أنجمه القضببان والأسل

وقال ابن المعتز:

وعم السماء النفع حتى كأنه      دخان، وأطراف الرماح شرار

وللمتبنى في مثل هذا المعنى:

يزور الأعدى في سماء عجابه      أسنتها في جانبها الكواكب

وكرره فقال:

فكأنما كسى النهار بها، دجى      ليل، وأطلعت الرماح كواكبا

وبيت بشار أصنع :

يروعه السرار بكل أرض مخافة أن يكون به السرار

وقد سبقه عبيد بن أيوب العنبري فقال :

لقد خفت حتى كل نجوى رأيتها أرى أنني من أمرها بسبيل

وجرير فقال :

تركوك تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكرر عليكم ورجالا

وأخذه أبو نواس فقال :

ما أرى خالين في الناس إلا قلت ما يخلوان إلا لسانى

وقال بشار :

وطال على الليل حتى كأنه بليلىن موصول فما يتزحزح

وقد سبقه عدى ابن الرقاع فقال :

فكأن ليلى حين تغرب شمسها بسواد آخر مثله موصول

وقال بشار :

لم يطل ليلى ولكن لم أتم

وللفرزاق قبله :

يقولون طال الليل، والليل لم يطل ولكن من يبكى من الشوق يسهر

وقال بشار :

ما كل بارقة تجرد بمائها وكذلك لو صدق الربيع لروضا

ويقول البحترى:

ما كل شائم باريق يسقاه

وللخريمى:

ولرب بارقة سهرت لها وسقى بلاد سواك وابلها

وقال بشار:

إذا خزن المال البخيل فإنما خزائنه خطية ودروع

ولليلى بنت طريف ترثى أخاها - وهى أسبق -

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

وقال بشار:

ويبيض بها مسك مكان بنانه ولكنها ريح الدماء تضوع

وقد سبقه إليه القائل:

لو عبق الناس مسكا من أعتتهم ومن ذوائب سيلاناتهم، عبقوا

وتناول ابن المعتز وأبو تمام هذا المعنى فقال الأول:

ملوك إذا خاضوا الوغى فسيوفهم مقابضها مسك، وسائرها دم

وقال الثانى:

لدم العدو على نضال سيوفهم سهك، وريح المسك فوق مقابض

وقال بشار:

شربنا من فؤاد الدن حتى تركنا الدن ليس له فؤاد

أخذه النظام - ويعزى إلى أبي نواس - فقال:

ما زلت أخذ روح الزق فى لطف وأستبيح دما من غير مجروح

حتى انثنت ولى روحان فى جسد والزق مطرحا، جسم بلا روح

وقال ابن المعتز:

والزق فى روضة، تسيل دما أوداجه، جاثيا على الركب

ويقول بشار:

تجرى على أحسابهم والعود ينبت فى لحائه

ولزهير قبله:

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل؟

ولنهشل بن حرى:

أرى كل عود نابتا فى أرومة أبى نسب الفتيان أن يتغيرا

ويقول بشار:

تأتى المقيم - وما سعى - حاجاته عدد الحصى، ويخيّب سعى الطالب

ومثله للبحترى:

وعجبت للمحدود يحرم ناصبا كلفا، وللمجدود يرزق قاعدا

ولا بن المعتز:

كم راقد موقظ برزق وذى اجتهاد ولا ينال

ولبشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج  
أخذه سلم الخاسر فقال:

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور  
وابن المعتز فقال:

صاح أن أمكتك لذة عيش فلا تذر وتقدم ولا تخف فاز بالحب من جسر  
وأبو العتاهية فقال:

فاجسر فإن أخوا اللذات من جسرا  
ويقول بشار:

فضحت جودها بطول مطال حالفتها، وآفة الجود مطل  
وقال ابن المعتز:

والحرص ذل، والبخل فقر وآفة النائل المطال  
ومثله قول آخر:

والمطل، من غير عسر، آفة الجود  
وقال بشار:

فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم  
يشبه قول العاوى البصرى:

إذا شرب الناس ماء الكروم شربنا على الصافنات الدماء  
وقول أبى سعد المخزومى:

لا يشرب الماء إلا من قليب دم ولا يبيت له جار على وجل  
ويقول المتنبي:

ولا ترد الغدران إلا وماؤها من الدم كالريحان تحت الشقائق  
وقال بشار:

إذا قال تم على قوله ومات العناء بلا أو نعم  
يلم به قول ابن المعتز:

تمت على سفك دمي وحدثت عن خبري  
وقال بشار:

تزل القوافي عن لساني كأنها حمات الأفاعي ريقهن قضاء  
وفي كتاب الحيوان " ريقهن مقضب "  
ويقرب منه قول جرير:

وعاو عوى من غير شيء، رميته بقافية أنفاذا تقطر الدما  
خروج بأفواه الرواة كأنها قرى هندوانى إذا هز صمما  
وقال بشار:

ترجو غدا، وغد كحاملة فى الحى لا يدرون ما تلد  
ولزهير:

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم  
وقال بشار:

أنه واش إذا سطعا

وتوق الطيب ليلتنا

وأصله قول ابن الدمينه:

عليهن المجاسد والحريز

هجان اللون أبكار وعون

توشى المسك بأرج والعبير

إذا طردت متون الريح فيه

ومثله قول العجير:

ذكى الشذا والمندلى المطير

إذا ما مشت نادى بما فى ثيابها

وقال بشار:

وقع الحديد به يشق حديدا

غيران وقر سمعه وضميره

وهو من قول عروة بن أذينة:

ووقر سمعه وقع الحديد

عرته الحادثات فنجزته

وقال بشار:

دون المشلشل ينشدون قصيدا

ولقد أقول لقافلين رأيتهم

ترك الأقارب والصديق بعيدا

كيف الأمير لزائر متخير

فكأنما نشـروا الثناء برودا

فتبادروا طرف الثناء لفضله

وهى من قول نصيب فى سليمان بن عبد الملك:

قفاذات أوشال ومولاك قارب

أقول لركب قافلين لقيتهم

لمعروفة من آل ودان طالب

قفوا خبرونى عن سليمان اننى

ولو سكتوا عليك الحقائق

فعاजوا فأننوا بالذى أنت أهله

وقال بشار:

فسقيتهم، وحسبتي كمونة      نبتت لزارعها بغير شراب  
وهو من قول القائل:

لا تجعلني ككمون بمزرعة      إن فاته الماء أغتته المواعيد  
وزاد عليه ابن الرومي فقال:

جعلته بالهجاء فلفة      إذ جعلتني مناه كمونا  
وقال بشار:

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى      ظمئت وأى الناس تصفو مشار به  
أصله قول النابغة:

ولست بمستبق أخا لا تلمه      على شعث، أى الرجال المهذب  
وقال بشار:

ولا بد من شكوى إلى ذى حفيظة      إذا جعلت أسرار نفسى تطلع  
يريد بذى الحفيظة الولي المحافظ على ود وليه  
وفى رسالة الغفران:

لا بد للمصدر أن ينثا      وللذى فى الصدر أن يبعثا  
ولأبى تمام:

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة      ولكن تفيض العين عند امتلائها  
وقال بشار:

قتلت السر كتماننا      وقتل السر أبقى له

من قول حارثة بنت عمران النهدي:

وإني لأطوى السر حتى أميته      وأجعل قلبي دونه أبدا قبرا

وقال كثير:

كريم يميت السر حتى كأنه      إذا استخبروه عن حديثك، جاهل

وأخذه المتنبي فقال:

"وسركم في الحشى ميت"

وقال بشار:

دعيني أصب من متعة قبل رقدة      تكاد بها نفس الشفيق تزول

ويقول المتنبي:

تمتع من سهاد أو رقاد      ولا تأمل كرى تحت الرجام

فان بثالث الحالين معنى      سوى معنى انتهابك والمنام

أى تمتع فى دنياك فى الحالين ولا ترج أنك إذا مت تكون كالنائم فانك

تكون ميتا لا نائما ولا منتها وهو ثالث الحالين.

وقال بشار:

ذكرت بها عيشا وقلت لصاحبي      كأن لم يكن ما كان، حين يزول

وللمتنبي قوله:

ذكرت به وصلا كأن لم أفز به      وعيئا كأنى كنت أقطعه وثبا

وقال بشار:

فبتنا معا لا يخلص الماء بيتنا إلى الصبح دوني حاجب وستور

ومنه قول علي بن الجهم:

سقى الله ليلا ضمنا بعد هجعة وأدنى فؤادا من فؤاد معذب

فبتنا جميعا، لو تراق زجاجة من الراح فيما بيتنا لم تسرب

وتصرف فيه ابن الرومي فقال:

طالما التفت إلى الصبح ح لنا سباق بساق

في نقاب من لثام وازار من عنق

وقال ابن المعتز:

فلو ترانا في قميص الدجي حسبنا في جسد واحد

وقال بشار:

لا تلم فيها وحسن حبها كل ما قرت به العين حسن

من قول توبة:

وأغبط من ليلي بما لا أناله بلى، كل ما قرت به العين صالح

ولالأحوص:

يقر بعيني ما يقر بعينها وأحسن شيء ما به العين قرت

وحسبنا هذا القدر، وعسى أن نكون انصفنا أبا معاذ.

## خاتمة

وبعد فهذا بشار، وتلك سيرته، وذاك ما وقفنا عليه من شعره، وقد حرصنا جهدنا أن لا نستتر شيئا من عيوبه أو نتسرفق به، وإن كنا نحس كأننا نبش قبرا ونمزق كفنا. وكل ما نرجو هو أن لا نكون قد بالغنا فى التجنى عليه أو أسرفنا فى ظلمه. ولهذا لا يسعنا إلا أن نقول أنا عهد له العذر من زمانه ومكانه وما لا حيلة له فيه مما رزق أو حرم.

كان ما أدركه من العهد الأموى مضطربا لا استقرار فيه، وكانت العصية القبلية فاشية، والحروب الخارجية والفتن الداخلية لا تنقطع، وقبائل التركمان والخزر يشتد ساعدها ويتفاقم أمرها فى الشمال، والخوارج تتلهب قلوبهم سخطا وحنقا، حتى جاهروا بالثورة آخر الأمر واكتسحوا اليمن والحجاز والعراق زمنا، ودعاة العباسيين يقوضون دعائم الدولة، والفوضى عامة، والارتباك على أشده، وأهل التقوى والعلم ينفضون أيديهم من الشؤون العامة فيتولاها ذوو وطلاب المنافع، حتى خرج أبو مسلم فكان الانقلاب العباسى.

ولكن قيام دولة بنى العباس لم يجرى بالاستقرار السريع، فخرج أعوان الأمويين على السفاح فى دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين والعراق، وواصل يزيد بن هبيرة فى "واسط" المقاومة حتى يثس، وغزت جيوش بيزنطة الحدود الشمالية وتوغلت فى البلاد وأمعت فيها تخريبا وسلبا وقتلا، ولم تكن خلفه المنصور أهدأ. فقد شق عمه "عبد الله بن على" عامل الشام عصا الطاعة، ونادى بالبيعة لنفسه، وأثار قتل أبى مسلم سخط أتباعه فى

خراسان فتمردوا، وأضرم الراوندية نار الثورة، وكانوا يعتقدون بحاول الله في الخليفة، وكادوا يقتلون الخليفة نفسه، وثار كذلك أهل طبرستان. واجتاح أهل الديلم الحدود، وفي خلافة المنصور قام محمد وإبراهيم ابنا الحسن بثورتهما في المدينة والبصرة، ونجح محمد في الحجاز واليمن نجاحا سريعا، ويابعه أهل هذه الأمصار، وأفتى الإمام أبو حنيفة الإمام مالك بصحة ذلك، وانقسم الشيعة بعد موت الامام جعفر الصادق، وكان قد أوصى لابنه الأكبر اسماعيل الذى توفى فى حياة أبيه، فعاد فأوصى لابنه الثانى موسى الملقب بالكاظم، غير أن بعض الشيعة رفضوا الاعتراف به وقالوا بإمامه "حبيب بن اسماعيل" فكان هذا بدء ظهور الطائفة الاسماعيلية التى أسست الدولة الفاطمية فى مصر.

وفى أيام المهدي ثار هاشم بن حكيم الملقب بالنبي المقنع. وكانت خراسان مرتعا خصيبا لشتى الطوائف والمذاهب. وكان هاشم هذا دعياً دميماً كرهه المنظر فكان يتقنع ليستر قبحه فسمى المقنع. وكان يزعم أن روح الله تحل بين حين وحين فى واحد يصطفيه من عباده، وإنها حلت فيه كما حلت من قبل فى أبى مسلم الخراسانى، ويقول إن الدين هو الإيمان ليس إلا ويدعو إلى التحرر من قيود الأخلاق والآداب والفضائل فاستولى على قلوب الناس وعظم شأنه، فبعث إليه المهدي بجيش هزمه وقتله، وكان أصحابه يسمون "المبيضة" لأنهم يلبسون البياض.

وكانت فى جورجيا شرقى بحر قزوين فرقة أخرى تسمى المحمرة لأنها كانت تلبس ثيابا حمرا. وكانت مبادئها أباحية مسرفة. وفى حكم المهدي امتزجت المبادئ الأباحية بعض الامتزاج بالفلسفة المانوية التى كانت ظهرت فى

فارس فى القرن الرابع الميلادى ولم تقمع ولم تقتلع جذورها. وقد انتشر هذا الخليط الاباحى المانوى فى خراسان وغربى ايران والعراق. وقد نكل المهدي بأهلها ولكنه لم يقض عليها. وفى عهده أيضا أغار البيزنطيون على الدولة، وثار عرب البادية ونهبوا القوافل وعطلوا الصلاة وأساءوا إلى الحجاج فسير إليهم جيشا قمع حركتهم.

هذه صورة موجزة للعهد الذى نشأ وعاش ومات فيه بشار - فله عذر من زمانه، ومن مكانه، ولم يكن من المعقول أن تمر به هذه الحوادث السياسية والدينية، وأن تحدث الانقسامات، وتظهر المذاهب الإباحية والاشتراكية، وتفشو مبادئ الاحاد، دون أن يكون لها أثر فى نفسه محسوس. ولو كان الوحيد الذى نرى فيه صورة من زمانه لما عذرناه. ولكن الشعراء الذين عاصروه لم يكونوا خير منه، بل لم يكن بعض الخلفاء وأبنائهم وذوى قرابتهم أهدي وأرشد من بشار، أو أقل خلاعة ومجونا وشكا وزندقة. ولا تنس أنه - إلى هذا - ولد أعمى، وكان من الموالى، وكانوا ساخطين ناقمين، وأنه ولد على الرق، وكان فوق هذا دميما مجدورا فطبع العمى، وهذه كلها خليقة أن تثير فى النفس مرارة قليلة أو كثيرة. وقد كره بعضهم منه تحريض الموالى على الانتفاء، ونحسب أن حجته فيما كان يصنع أنهض من حجته فيما كانوا ينقمون. فما عدا أن كان يدعو إلى الحق العام الذى لكل إنسان، وإلى رفع الظلم وتقرير المساواة - وقد جاء بها الإسلام.

وقالوا إن بشارا كان خليقا به أن يتحمل الآفة التى منى بها بالصبر والتجمل. ولاشك أن الصبر كان حريا أن يكون أجلب للعطف. ولكن من الذى قال أن عطف الناس مطلب كل إنسان؟ ومن الذى يزعم أنه يخف على

النفس الأبية والطبع الحمى؟ أن نشدان العطف مظهر ضعف أو مكر فى الانسان. ولم يخلق بشار ضعيفا بل بنى على القوة والتمرد، ولا حيلة له فى هذا. وليس مما يقبل أن يقال للقوى الشديد، أولى بك أن تظهر الركافة والفسولة، وأن تعقد سطيحا، وتقوم مرنحا، وتكون فى كل أحولك وكلة لا متصرف لك ولا حيلة عندك، لتظفر بالعطف عليك والمرثية لك؟ وما يتزع المرء إلى التمرد باختياره، بل لأن ذلك طباع فيه وفى نفسه تهيؤ له. على أنه إذا جاز أن يطالب بشار بالتجمل والتصبر، وتلقى ما رماه به سوء خطه، بالرضى والتسليم، فلماذا لا يجوز أن يطالب الناس بالأدب، واجتناب إيذاء المصاب بتعميره بخطبه؟ لقد كان الناس لا يفتأون يقولون لبشار إنك أعمى فكيف تجيد التشبيه؟ وأنت أعمى فكيف تحب؟ وأنت أعمى فكيف عرفت كذا وكذا؟ وأنت كانتك جاموس فكيف تقول إن جسمك ناحل؟ وكان النساء يعيرنه أيضا بعماه، ويغتنمن فرصته فيدعين لأنفسهن من الجمال ما لعل نصيبهن منه أقل من القليل، ويهزان، ومنهن من قالت له "أى معنى فيك لى، أو فى لك؟ أنت أعمى لا ترانى فتعرف حسنى، وأنت قبيح الوجه فلاحظ لى فيك" حتى الشيب الذى يدرك كل حى مع فسحة العمر كن يعبته به! وقد قالت له إحداهن "أى رجل أنت لو كنت أسود اللحية والرأس!!" قال بشار "أما علمت أن بيض البزاة أئمن من سود الغرباء؟" فقالت "أما قولك فحسن فى السمع. ومن لى بأن يحسن شيبك فى العين" ولعلها كانت شرا منه بياض شعر.

وكان جلساؤه يثقلون عليه ويعاثبون، اعتمادا على عماء، حتى مل ذلك

فقال لبعضهم:

هل لك فى مالى وعرضى معا وكل ما يملك جيرانيه؟  
واذهب إلى أبعد ما يتسوى لا رذك الله ولا مالىه!

فإذا كان عليه هو أن يروض نفسه على أن يكون صابرا مطمئنا، فقد كان على الناس أن يعينوه على ذلك ويكفوا عنه فضولهم وما يركبونه به من عبث وما يجرحونه به من تعبير. وليس من الأنصاف أن يلام وحده، فقد كانت سيرتهم معه بعض ما أغراه بالشطط ودفعه إلى الإسراف وزين له أن يمضى على وجهه.

عصر مضطرب، وزندقة فاشية، وخلاعة شائعة، وبواعث كافية للتمرد، من ذات نفسه ومن بيئته - فكيف كان من الممكن أن يكون بشار ألا كما نحن نحاول أن نبين له عذره، وأنه كان خليقا أن يتغير ويتهدب، لو واتاه زمانه وبيئته، أو لو شاءت قدرة الله غير هذا المخرج. ثم إنه ينبغي أن لا ننسى أن لعل فى أخباره مبالغة، فقد كانت الموجدة عليه شديدة، لطول لسانه، واسفاهه، ولما فى غزله من الاغراء بالخلاعة، ولكره الفقهاء وأصحاب الكلام له، ولغضب الخليفة عليه لما هجاه وسعى به إليه وزيره القوى، ولنذكر أن أهل البصرة كانوا مشهورين بالنفاق، وتقلب الأهواء، حتى روى الرواة أنهم ابتهجوا لموته وتباشروا وشمثوا، وكانوا قبيل ذلك يعدون له الهدايا ليقدموها إليه!

ولنذكر أخيراً أن بشار الشاعر هو الذمى يعنينا، أما سيرته فهى على سوئها وقبحها لم تكن شرا من سيرة معاصريه، ومن تلاهم من الشعراء وغيرهم وإنما تبدو أسوأ كان أشهر، وعلى الله لا علينا حسابه.